

تأثير الإسلام في شعر نابغة بنى جعدة

The Influence of Islam in the Poetry of Nabigha Bani Ja'dah

* عمر عبد الحادي ديان

Abstract

In the pre-Islamic era there were a large number of famous poets whose poetry had a great impact on the Arab society and they were blue eyed of the society due to their poetry. When Prophet(peace and blessing of Allah be upon Him) conveyed the message of Islam to the people, immediately most of the Quraish and the Arab poets didn't accept Islam although there is a reasonable number of poets who embraced Islam.

Among those who accepted Islam was Nabigha Ja'di. Since he has two phases of his life i.e. non-Islamic and Islamic, if his poetry was manifestation of pre Islamic Arab society and free of religious influence before he embraced Islam, his poetry was reflection of truth of Islam and its teachings as he formed them in his poetry. While affirming his non Islamic way of life that it was based upon ignorance and negligence, he acknowledged that this is a greatest favor of Allah and His blessing upon him that he embraced Islam, followed its teaching and wore its dress before passing away his soul.

While studying the poetry of Nabigha impact of Islam can be observed as he used his poetry not only for worldly purpose but he used it for describing the virtue of Islam and calling people towards Islam and Jihad in the way of Allah. Being a Muslim second phase of his poetry is an ideological, thought provoking and persuading people to the Holy Qur'an and Sunnah

لقد كان للإسلام تأثير عظيم في الشعراء في صدر الإسلام، ظهر ذلك جلياً في
أشعارهم، وذلك بسبب روح الدعوة الجديدة، وسماحة تعاليم الديانة الحنيفية، فراح كثير من
الشعراء الموالين لرسالة نبينا محمد ﷺ يصدرون عن منهج ديني، مستفيدين من معطيات القرآن
ال الكريم، منهم النابغة الجعدي^(١)، ويظهر هذا التأثير في شعره من خلال التالي:

* طالب الدكتوراه بكلية اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام أباد، باكستان.

البند الأول؛ شعر رحلة الحياة، والانتقال من الجاهلية إلى الإسلام

إن توثيق رحلة الحياة في الشعر أمر جديد على الشعر العربي في صدر الإسلام، والجعدي بعدهما رأى طول عمره -وذلك في خضم الأحداث العظيمة؛ التي نقلت الحياة العربية من طور تقليدي، إلى طور فيه نتاج وبناء- راقٍ له أن يدنن برحلته في الحياة، ونشأته فيها، ووصوله إلى عتبة الإسلام، ودخوله فيه؛ لينعم بسعادة الدنيا والآخرة، فها هو يقول عن رحلته [من بحر المتقارب] ^(٢):

لِسَتْ أُنَاسًا فَأَفَنَيْتُهُمْ وَأَفَنَيْتُ بَعْدَ أُنَاسٍ أُنَاسًا
تَلَائِفَةً أَهْلَيَنِي أَفَنَيْتُهُمْ وَكَانَ إِلَّا هُوَ الْمُسْتَآسَا
وَعِشْتُ بِعِيشَةِ يَنِي إِنَّ الْمُنْوَنَ وَتَلَقَّى الْمَغَايِشَ فِيهَا حِسَاسَا
فَحِينًاً أَصَادِفُ غَرَاهِهَا وَحِينًاً أَصَادِفُ مِنْهَا شِمَاسَا
نَشَأْتُ غَلَامًاً أَفَسِي الْحَرُوبَ وَيَلْقَى الْمَقَاسُونَ مَيِّي مِرَاسَا

يجذبنا الشاعر عن طول رحلته في الحياة، إذ عاصر ثلاثة قرون من الناس ^(٣)، وتغلّب بهم دهراً طويلاً، وكلهم قد انقضوا وهلّوكوا، وبقي الجعدي متّاماً بالله تعالى، فالله هو المستعطف ^(٤)، ويحكي لنا أنّ حياته كانت على طبقين، طبق يسلم فيه من المحنون -وهو نوائب الدهر ^(٥)- فيكون في غرة منها، وطبق آخر لا يسلم منها؛ والتي تجعل المرء ذليلًا لشدة بلائها؛ فيلاقى صعوبة وشدة، ومع ذلك فقد نشأ الشاعر نشأة قوية، تدرّب فيها على الحروب، وأصبح فارساً قوياً، يعرفه الناس.

ومازال الجعدي كذلك حتى جاء الله سبحانه بالإسلام، ولم يقف أمامه متفرجاً، بل أسلم واتبع هداه، فيقول عن ذلك [من بحر الطويل] ^(٦):

رَكِبْتُ الْأَمْوَرَ صَعْبَهَا وَدَلْوَهَا وَقَاسَيْتُ أَيَّامًاً تُشَبِّهُ الْحَرَوْرَا
تَبَعَثُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْمُهْدِي وَيَتَلَوُ كِتَابًا كَالْمَحْرَةَ نَيْرًا
وَجَاهَدَتْ حَتَّىٰ مَا أُحِسْنُ وَمَنْ مَعَيْ سُهْلًا إِذَا مَا لَاحَ ثُمَّتْ غَوْرًا
أُقِيمُ عَلَى التَّقْوَىٰ وَأَرْضَى بِفِعْلَهَا وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخْوَفَةً أَوْجَرَا

وَطَوَّفْتُ فِي الرَّهْبَانِ أَعْبُرُ دِينَهُمْ وَسَيَرْتُ فِي الْأَجْبَارِ مَا لَمْ تُسَبِّرَا

إنه يؤكد هنا ما أخبرنا عنه في الأبيات السابقة، من ركوبه للأمور الصعبة، والسهلة، وذلك كله في طريق ارتحاله في الحياة، التي قاسى فيها أياما صعبا، تشيب الغلام اليافع^(٧)، وكان بحاجة ماسة إلى مخرج من هذا البلاء الذي يكتنف حياته، فجاء الإسلام، واتبع رسول الله ﷺ الذي جاء بكتاب كالجرة نير، وشارك في الجهاد في سبيل الله تعالى، وذهب إلى أماكن لا يحس فيها بسهيل إذا ما بدا أو غاب، ولعله من شدة انهماكه في الجهاد؛ لا يجد وقتا لمراقبة هذا النجم العجيب، أو أنه ودع الموى؛ فسيهل ما يذكر بالأحبة، وكلاهما حسن، فيقييم على التقوى ويرضى بها بديلا؛ حذر النار، وقد أخذ العبرة من دين الرهبان، واطلع على سيرة الأخبار؛ بقدر لم يتيسر للأخبار أنفسهم.

هذا ويخكي لنا الشاعر عن غفلة الناس الذين عاش بينهم، وعن نفسه قبل مجيء الإسلام، وهو طور عاشه الشاعر، وقد نجا منه بالهدایة، ويخبرنا عنه هنا للعبرة، والعظة، فيقول [من بحر البسيط]^(٨) :

إِمَّا تَرَى ظُلُلَ الْأَيَامِ قَدْ حَسَرْتُ
غَيّْي وَشَرِّتُ ذِيَّاً كَانَ ذِيَّاً لَا
وَعَمَّتِنِي بَقَايَا الدَّهْرِ مِنْ قُطْنِ
فَقَدْ أَنْضَبْتُ ذَا فِرْقَنِ مَيَّاً لَا
يَصُصَّنَ أَجِيَادُ أَدْمِ تَرَعَّى ضَالَا
فَقَدْ تَرُوْغُ الْغَوَّانِ طَلَعَتِي شَعْفَا
فِي غُرَّةِ الدَّهْرِ إِذْ تُعمَانُ دُوَّ تَبَعِ
وَإِذْ تَرَى النَّاسَ فِي الْأَهْوَاءِ هُمَّا لَا
حَتَّى أَتَى أَحَمَّدَ الْفُرْقَانَ يَقْرَأُهُ
فِينَا وَكَمَا يَعِيْبُ الْأَمْرِ جُهَّا لَا
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي
حَتَّى لَيْسَ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرِّيَا لَا

يبدأ حديثه مخاطبا امرأة؛ قائلا لها: إن ترى ظلل الأيام قد كشفت عني الستر، ورفعت ذيلا كان طويلا-يعني قصر شعره الطويل - وшибتني بقايا الدهر فصار شعري أبيض، حتى غدت كمن ليس عمامة بيضاء، فلا يغرنك ذلك؛ فقد أحكم ترجيل شعري، وأجعله مفروق فرقين، عندئذ تُعجب طلعي الفتيات الجميلات، وتوجه قلوبهن بمحبي^(٩)، فينصصن رقابهن إلي. ويشبههن

بغزلان ترعي؛ فترفع رقابها ناظرة إليه حين مروره، وهذا كله في غرة الدهر، وغفلة الزمان، وكان هذا زمن النعمان^(١٠) ذي الشأن العظيم، والملك المتبوع، والناس في هذا الوقت يسيرون خلف الأهواء؛ عبثا بلا هدف. فاستمر ذلك الحال حتى أفاء الله على الإنسانية بالرحمة، وأرسل نبيه محمدًا^{صلوات الله عليه}، وأنزل عليه الفرقان، وقام بدعاوة العرب الجهلاء إليه، فيحمد الشاعر^{الله تعالى} على أنه لم يُسْقِ الموت إليه؛ قبل أن يلبس لباس الإسلام، وهذه هي النعمة الكبرى، والمنة العظمى.

وفي النص التالي يبين طول عمره، وتنقله في الآفاق؛ بحثا عن حياة يرجوها، شأنه شأن طلاب المعالي في زمانه، ويستقر به المقام في أحضان الإسلام العظيم؛ فيقول [من بحر الكامل]^(١١):

قالَتْ أُمَّامَةً كَمْ عُمِّرَتْ زَمَانَةً وَدَجَّحَتْ مِنْ عِتِّرٍ عَلَى الْأَوْثَانِ
وَلَقَدْ شَهِدَتْ عَكَاظَ قَبْلَ مَحْلَهَا فِيهَا وُكِنَّتْ أَعْدُمُ الْفِتَيَانِ
وَالْمَنْذَرُ بْنَ مُحَرَّقٍ فِي مُلْكِيَّهِ وَشَهِدَتْ يَوْمَ هَجَائِنَ النُّعَمَانِ
وَعُمِّرَتْ حَتَّى جَاءَ أَحْمَدُ بِالْمُهَدِّى وَقَوْارِعُ ثُلَّتِي مِنْ الْفِرْقَانِ
وَلَبِسَتْ مِنِ الإِسْلَامِ ثُوبًا وَاسِعًا

لقد عمر كثيرا، فشارك العرب في دياناتهم الوثنية، وشهد عكاذا قبل محلها، وهو فتي قوي، وأدرك المنذر بن محرق^(١٢)، وشهد يوم هجائن النعمان أخي المنذر بن محرق، والهجائن النوق المهجنة، وقد كان لها يوم معروف^(١٣) - وهذا يعني أن حياته بدأت قبل الإسلام؛ بزمن يقدر بعشرات السنين - وقد بيّنا ذلك في ترجمته - وامتد عمره حتى جاء الرسول^{صلوات الله عليه} وسمع القرآن، فكانت قوارع تقع الباطل، وتدخل النور إلى القلب؛ فآمن، وتعلم الدين، وصار له فيه باع، وذلك كله من كرم الله تعالى.

ومهما يكن؛ فإن شاعرنا قد ارتحل في حياته كثيرا، يبحث عن بحد، لا يدرري عن كنهه شيئا، ولكن نفسه الأبية لم تبارك له المكوث في دياره؛ راعيا للإبل، بل حثته على التطواف، فيقول [من بحر الطويل]^(١٤):

وَمَا زِلْتُ أَسْعَى بَيْنَ بَابِ وَدَارَةٍ بِنَجْرَانَ حَتَّى حِفْتُ أَنْ أَتَنَصَّرَا

وما وصل إليه الجعدي من المداية، والانتقال من الجاهلية إلى الإسلام، هو نتاج تجربة طويلة، تمت في أحضان الزمن سبعين طويلاً، وأعواماً مديدة، يشير إليها، كالموقن لها، فيقول [من بحر الوفر] ^(١٥):

فَمَنْ يَكُ سَائِلًا عَنِّي فَإِلَيْيِي مِنَ الْفِتَيَانِ فِي عَامِ الْخَنَانِ
مَضَتْ مِئَةٌ لِعَامٍ وُلِدْتُ فِيهِ وَعَشَرٌ بَعْدَ ذَاكَ وَحَجَّتْنَا
فَقَدْ أَبْقَيْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ مِنِّي كَمَا أَبْقَيْتُ مِنَ السَّيفِ الْيَمَانِي
تَفَلَّلَ وَهُوَ مَأْنُورٌ جُحْرَازٌ إِذَا جَمِعْتُ بِقَائِمِي إِلَيْدَانِ

كان عمره حين قال هذه الأبيات، مئة واثنتي عشرة سنة، وقد كان فتياً عام الخنان ^(١٦)، وهو الآن قد أنهكته صروف الدهر؛ حتى صار كالسيف اليماني القوي؛ المتوارث من السلف إلى الخلف؛ فتشائم من كثرة المقارعة به في المعارك. وهذا العمر الطويل، هو لحظة في صفحة الدهر، يقول عنه [من بحر الطويل] ^(١٧):

وَمَا عُمْرِي إِلَّا كَدَعْوَةٌ فَسَارِطٌ دَعَا رَاعِيًّا ثُمَّ اسْتَمَرَ فَادِرًا

هكذا العمر، لحظات وينقضي، كفارط تقدم قومه إلى الماء، فدعا راعياً؛ ليدلله عليه، فدلله، وشرب منه، وعاد إلى قومه مخبراً.

البند الثاني؛ شعر الدعوة

شارك الجعدي بالدعوة إلى المعروف؛ استجابة لداعي القرآن، وامتلاكاً للنفس الأمارة بالسوء، وحباً في نشر الخير في الناس، والبعد عن العصبية الجاهلية؛ لتحقيق قواعد المداية، والسعى لجمع شمل الأمة العربية أولاً، ثم العالمية ثانياً؛ تحت راية الإسلام العظيم، فيقول [من بحر المتقارب] ^(١٨):

وَلَيْسَتْ بِشَوْهَاءٍ مَقْبُوحَةٍ تَوَافِي الْمَدِيَارَ بِوْجُونِي غَيْرَ
فَلَدَرَ ذَا وَعَدَدٌ إِلَى غَيْرِهِ فَشَرَرَ الْمَقَالَةَ مَا يُعَسِّرَ
وَمَا الْبَغْيُ إِلَّا عَلَى أَهْلِهِ وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَهْذِي الشَّجَرِ

تَرَى الْعُصَنَ فِي عُنْفَوَانِ الشَّبَابِ بِيَهَتَرْ زُ فِي بَهَحَاتِ خُضَرِ
زَمَانًاً مِنَ السَّدَهِ ثُمَّ التَّسْوِي فَعَادَ إِلَى صُفَرَةِ فَانْكَسَرِ

في البيت الأول يحاكي ما ألهه من البيئة العربية قبل الإسلام، ويُظهر مشاعر العربي الأبي، ويريد بهذا البيت التهديد، وتحويل الأمر، حتى إننا لنذهب به مذاهب بعيدة في التخييل، إذ حذف اسم "ليس" وأبقاءه للخيال، وأنخبر عنه بما يشير، ومعنى البيت: أن الأمر الذي أحفاه، وبهدد به؛ يوحى بدهاء عظيمة، وهذه الدهاء هي شوهاء حيفة، قريبة من النيل من أعدائه^(١٩)، وليس كما قد يظن أنها بعيدة لا تأتينهم، بل إنها توافي الديار، وتقترب منها بلا رحمة؛ مظهراً للغضب الشديد، هذا الأمر متوقع من الإنسان الجاهلي؛ الذي لا يعرف سوى الانتصار لنفسه، إلا أن الإسلام يأمر أتباعه باستعمال الحسن في التعامل، فقدم هذا التقدمة؛ ليتحقق أسلوب الترغيب والترهيب.

وكان من أسلوب الترغيب عنده؛ أنه حدا حذو النصح، والإرشاد، مقتبساً ذلك من منهج الدعوة، الذي جاء به رسولنا ﷺ فضمّن أبياته معاني قرآنية؛ بأسلوب أدبي، لا يخلو من رشاقة العبارة، والآيات التي اقتبس منها المعاني، التي يدل عليها البيت الثالث، والرابع، والخامس؛ هي: ﴿وَلَا يَجِدُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِه﴾^(٢٠) وقوله تعالى ﴿إِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعْبٌ وَهُوَ وَزِينَةٌ وَنَقْاَخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأُولَادِ كَمَثْلٍ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَانُهُ ثُمَّ يَهْبِطُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَّامًا﴾^(٢١).

ثم يلحق هذه الآيات بأبيات أخرى، يشرح فيها حقيقة دينية، أكدتها القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف؛ في مواضع كثيرة، وهي القدر، فكل ما كتب الله كان؛ مهما توفرت الأسباب التي توحى بعكس ما هو كائن، يقول الشاعر [من بحر المقارب] ^(٢٢) :

وَكَمْ مِنْ أَخِي عَلَيْهِ مُقْتَرٌ تَائِي لَهُ الْمَالُ حَتَّى إِنْجَرَ
وَآخَرَ قَدْ كَانَ جَمَّ الْغِنَاءِ رَمْتُهُ الْحَوَادُثُ حَتَّى إِفْتَرَ
وَكَمْ غَائِبٌ كَانَ يَخْشَى الرَّدَى فَآبَ وَأَوْدَى الَّذِي فِي الْخَضَرِ

وشاعرنا بهذه القصيدة، ينتقل من غرض المجادء، والسير وفق هوى النفس، إلى أسلوب الدعوة، ومنهج ادفع بالتي هي أحسن، فمن مطلع القصيدة نفهم أن حديثاً ذا لحنة شديدة؛ دار بينه وبين طرف آخر، ونبهنا إلى أنه صعب المراسل، شديد الشكيمة، لكن أمراً يمنعه من الخوض في المجادء، ويحيد به إلى أسلوب النصح والتوجيه.

وقد كان الجعدي ناصحاً في أكثر من موقف، وبذلك يسير على نهج النبوة، قال تعالى:

﴿أَبْلُغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّيْ وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ الَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢٣) فكان حفاظاً على الشاعر المؤمن أن يوجه الناس، وأن يحذّرهم مخالفـة الدين، وقد فعل، ومن ذلك قوله [من بحر المنسـح]^(٢٤):

يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ تَرَوْنَ إِلَى فَارِسَ بَادَتْ وَخَدُّهَا رَغْمًا
أَمْسَأُوا عَيْدًا يَرْعَوْنَ شَاءُكُمْ كَائِنًا كَانَ مُلْكُهُمْ خُلْمًا
مِنْ سَبَأَ الْحَاضِرِينَ مَارِبٌ إِذْ يَئُونَ مِنْ دُونِ سَبِيلِهِ الْعِرْمَا
فَمُرْقُوا فِي السِّلَادِ وَاعْرَفُوا الْمَهْوَنَ وَذَاقُوا الْبَأْسَاءَ وَالْعَدَمَا
وَبُدُّلُوا السِّدَرَ وَالْأَرَاكَ بِهِ الْحَمْ طَوَّضَ حَى الْبُيْنَ أُنْ مُنْهَى دِيمَا

إنه بهذا الشعر ينبه العرب المسلمين؛ إلى الاعتبار بما حلّ بمن خالف الدعوة إلى الله تعالى، فيضرب الأمثل؛ مقتدياً بأسلوب القرآن الكريم، فيسوق مثاليـن لقومـين كان لهما صولة، وجولة، أحدهـا قـريب عـهـدـهـ، والـآخـر غـابـرـ فـيـ الزـمـنـ، وهـمـاـ فـارـسـ، وـقـومـ سـبـاـ، فـأـمـاـ الـأـوـلـ فقد هـزـمـهـمـ اللهـ تعالىـ بـجـيـوشـ الـمـسـلـمـينـ، وـصـارـوـ عـبـيدـاـ وـخـدـمـاـ، وـأـقـاماـ قـومـ سـبـاـ فـقـدـ مـرـقـواـ كـلـ مـرـقـ، وـبـدـلـوـ بـجـنـتـيـهـمـ السـدـرـ، وـالـأـرـاكـ، وـأـخـارـ سـدـهـمـ الـذـيـ كـانـ شـرـيـانـ حـيـاـتـهـمـ، وـذـاكـ كـلـهـ استـحـمـوـ بـعـصـيـةـ اللهـ تعالىـ، وـهـذـاـ الـأـمـرـ سـنـةـ إـلهـيـةـ جـارـيـةـ فـيـ الـحـيـاـةـ، قـالـ اللهـ تـعـالـيـ فـيـ شـأـنـ قـومـ سـبـاـ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَّا فِي مَسْكَنَهُمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينِ وَشَمَائِلِ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةً طَيِّبَةً وَرَبُّ عَفْوٍ﴾^(٢٥) فـأـعـرـضـوـ فـأـرـسـلـنـاـ عـلـيـهـمـ سـيـلـ الـعـرـمـ وـبـدـلـنـاـهـمـ بـجـنـتـيـهـمـ جـنـتـيـنـ دـوـائـيـ أـكـلـ حـمـطـ وـأـتـلـ وـشـيـءـ مـنـ سـدـرـ قـلـيلـ﴾^(٢٥).

هذا وقد عاش الجعدي عمراً طويلاً، فجرّب الحياة، وخرج بخلاصة، أفادها إلينا بقصيدة طويلة، هي أطول قصائده، وكانت مقدمة الأبيات التالية [من بحر الطويل]^(٢٦):

خَلِيلِيِّ عُضْ سَاعَةً وَتَهَجَّرَا
وَلُومًا عَلَى مَا أَحَدَثَ الدَّهْرُ أَوْ ذَرَا^١
أَمْ تَعْلَمَا أَنَّ إِنْصِرَافًا فَسُرْعَةً
لِسَيِّرِ أَحَقِّ الْيَوْمِ مِنْ أَنْ تُقَصِّرَا^٢
وَلَا تَسْأَلَا إِنَّ الْحَيَاةَ قَصِيرَةً
فَطِيرًا لِرَوْعَاتِ الْحَوَادِثِ أَوْ قِرَا^٣
وَإِنْ جَاءَ أَمْرٌ لَا تُطِيقَانِ دَفْعَةً
فَلَا تَجْزَعَا مَمَّا قَضَى اللَّهُ وَاصِرَا^٤
أَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْمَلَامَةَ نَفْعُهَا
قَلِيلٌ إِذَا مَا الشَّيْءُ وَلَّ فَأَدَبَرَا^٥
هَيْجُ الْلَّهَاءِ وَالْمَلَامَةَ ثُمَّ مَا^٦
لَوَى اللَّهُ عِلْمَ الْعَيْبِ عَمَّنْ سِوَاءٌ وَتَأْخَرَا^٧

إنه يريد أن يقرر لدى الخلilian أولًا، ثم جميع السامعين ثانياً، أمر الإيمان بما قدر الرحمن تقدست أسماؤه، وهذا يحتاج إلى الصبر، والبعد عن التذمر، والتتكفّف عما قدر الله تعالى، فيوصي الشاعر خليليه بأن يتظارا قليلاً؛ ليوصيهما بما عنده، ثم ليطلقوا وقت المجري، وقد خصّ هذا الوقت إنما لأنّ الوقت قصير، والتأخر فيه فوات للمنافع، وإنما لما في هذا الوقت من استشعار المحرّر؛ المفضي إلى تذكر نار الآخرة، ويخبرهما بصيغة السؤال؛ المراد منه التقرير، والتأكيد؛ على أنّ السرعة الآن في السير حقّ عليهما، ولقصر الوقت، وأهمية الكلام الموجه لهما؛ يطلب منهاماً ألا يسألوا ألا يجادلا، وهذه الخلاصة التي توصل إليها؛ ليست وليدة الساعة، أو المكان، بل هي خلاصة تجارب، خلص إليها بعد عمر طويلاً، ومع ذلك فالامر بتحديد وجهة الانطلاق مطروح للنفس، فإن فهمت، فذاك حظها، وإن لم تفهم، فحظها أيضاً، ويتربّ على ذلك القيام بالواجب، أو التقصير فيه.

ثم يوجه الشاعر نصيحة ثمينة، تعين المرء في مواجهة عقبات الحياة، وهذه هي الإيمان اليقيني بالقدر، فلا ردّ لما قضى الله تعالى، ولا مقدّر لما ردّ الله تعالى، وهذا يقرّره حديث رسول الله ﷺ "اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا رَازِدَ لِمَا قَضَيْتَ" ^(٢٧) وعلى هذا فيجب على الإنسان التسلّح بالصبر، والذي لا يصبر، ويتضجرّ مما قدر الله تعالى، أو يلوم؛ فإنه لا ينتفع بتضجره، أو لومه، والملامة لا نفع وراءها، بل تحيّج الغضب، وتزيد من تضجر صاحبها، ثم لا تقرب شيئاً غير ما

قدرة الله تعالى، والخلاصة أن الإنسان لا يعلم الغيب، والله تعالى وحده عالم الغيب، ويشير الشاعر بهذا إلى قوله تعالى: ﴿وَعِنْهُ مَقَاتِعُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾^(٢٨) قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفُهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(٢٩).

وقد استفاد شاعرنا من مراس الحياة، وتعلم منها كثيرا، واصطبغ ذلك العلم بصبغة الإسلام، فصار الجعدي يناولنا الحكمة، والمعوظة الحسنة، ويقدمها إلينا شعرا، يبقى حالدا ما بقيت اللغة، فيقول [من بحر الطويل]^(٣٠):

لَا حَيْرَ فِي جَهَلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الْأَمْرَ أَصَدَرَ
وَلَا حَيْرَ فِي حَلِيمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفَوةً أَنْ يُكَدِّرَا
فَفِي الْحَلِيمِ حَيْرٌ مِنْ أَمْوَارِ كَثِيرٍ وَفِي الْجَهَلِ أَحْيَانًا إِذَا مَا تَعَذَّرَا

الجهل ليس يعني عدم العلم، وإنما هو ما ينافي العمل، ويعاشي الخفة، وخلاف الطمأنينة^(٣١)، وهذا الجهل كان طبعا من طبائع العرب في الجاهلية، وقد حملهم على خير وشر. والتاريخ يحدّثنا عن هذا كثيرا، ولا يبلغ هذا الجهل غاية طيبة إلا بهزمه بالحلم، وهذا ما يقرره الشاعر هنا، والحلم نفسه يحتاج أن يكون صاحبه قويّا كريما، يسارع إلى العفو، والصفح، والإكرام، ليجعل ذلك سياجا يحمي حلمه، ويثبت مكانته في الناس. والحلم أساس الحياة السليمة، وبه خير كثير للناس، إلا أن بعض المواقف ينتصر فيها الغضب، وهو حسن محمود. ومن شعر الدعوة التحذير من أصحابسوء، والضلالة، وإرشاد الناس إلى ما حقّه أن يقوى لحمة الجماعة، وهذا يكون من عارف الناس، وخبرهم، والجعدي واحد من اتخذهم الدهر صديقا، إذ طال عمره، وجرب معادن الناس، فيقول [من بحر المتقارب]^(٣٢):

فَلَا أَلْفِيَنْ كاذبًا آثِمًا قَدِيمَ الْعَدَاوَةِ كَالْيَرِبِ
يُجَبِّ رُكْمَ آنَّهُ ناصِيَخٌ وَفِي نُصُرَجِهِ حُمَّةُ الْعَقَرِبِ
إِذَا نَسَاءَ أَوْلُكُمْ مُصَدِّدًا يَقْ وَلَآخْ رُكْمَ صَبَّوبِ
لُبْ وَهَنَ عَظِمَكُمْ لِلْعَدَدِي وَعَمَدًا فَإِنْ ثُغَبُوا يَغْلِبِ

التحذير من النفاق، وأهله مطلب ديني، الأمر الذي تجرد له المجعدي في شعره محدرا، وقد ابتدأ الحديث بتوجيه النهي إلى نفسه، كي لا تخذل سبيل المنافقين سبيلا، ليقدم الصيحة بشكل مناسب، فيه تلميح، وتعريف بأهل هذه التجارة الخاسرة؛ نافياً أن يكون يحمل في طياته العداوة، والحسخيمة؛ متزيناً بثوب النصح، موجهاً سلاحه إلى ظهور الجماعة، مریداً من وراء ذلك النيل من وحدة الصف، وتمزيق الشمل، ليوهن قوة المجتمع.

ولشعر الدعوة ألوان مختلفة، منها دعاء الله تعالى أن يجازي صاحب المعروف جزاء حسنة، وأن يحفظه من أي مكره، وقد قال الرسول ﷺ: "مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَاتَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي التَّنَاءِ" ^(٣٣)، وللمجعدي في هذا شعر جميل، وفيه يقول ^(٣٤):

فَلَا يُبَعِّدَنَّكَ اللَّهُ إِنْ كَانَ حَادِثٌ أَصَابَكَ عَنَّا نَازِحُ الدَّارِ نَائِيَا
وَلِكِنْ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا وَهَالِكًا عَلَى كُلِّ حَالٍ خَيْرٌ مَا كَانَ جَازِيَا
فَلَمْ يَقِنْ مِنْ تِلْكَ الْدِيَارِ وَأَهْلِهَا سُرَى الْلَّيْلِ وَالْأَيَّامِ إِلَّا مَغَانِيَا
إِذَا أَتَيَا خَيْرًا كِرَامًا بِغُطَّةٍ أَنَاخَا بِهِمْ حَتَّى يُلَاقُوا الْدَّوَاهِيَا

والشاعر يضمّر لهذا الرجل الحبة والتقدير، وما ذاك إلا لأنّه يستحق ذلك؛ من وجهة نظر الشاعر، ولا بد أن المثنى عليه قد أظهر ما من حقه أن يحمد عليه.

■ البند الثالث؛ شعر الجهاد في سبيل الله تعالى

من الأغراض الوليدة في عصر صدر الإسلام شعر الجهاد، والمجعدي يمدّنا بنص لطيف، يظهر فيه وجوب الخروج في سبيل الله عز وجل، لنشر الإسلام، والجهاد في سبيل ذلك، من خلال حديثه مع زوجته، التي توصيه بذكر الله تعالى، ودموع عينيها تحرّي كلامه، فيقول [من بحر البسيط] ^(٣٥):

بَايَتْ ثُدَّكِرِي بِاللَّهِ قَاعِدَةً وَالدَّمْعُ يَهَلُّ مِنْ شَائِيْهِمَا سَبَلا
يَا بَنَتَ عَمِّي كِتَابُ اللَّهِ أَخْرَجَنِي عَنْكُمْ وَهَلْ أَمْنَعَ اللَّهُ مَا فَعَلا
فَإِنْ رَجَعْتُ فَرَبُّ النَّاسِ يُرْجِعُنِي وَإِنْ لَحِقْتُ بِرَبِّي فَابْتَغِي بَدَلا
مَا كُنْتُ أَعْرَجْ أَوْ أَعْمَى فَيُعَذِّرِنِي أَوْ ضَارِعًا مِنْ ضَيْقٍ لَمْ يَسْتَطِعْ جَوَالًا

إن هذه الأبيات تظهر نفس صاحبها، المؤمنة بكتاب الله، والمريدة الخير للناس، والبعيدة عن الأنانية وحب النفس، ونحن هنا أمام نص جميل، يمتلىء حيوية، فنرى امرأة قاعدة، لا تستطيع النهوض، والدموع ينهل بغزارة من عينيها، وهي تذكر زوجها الله عز وجل، وتطلب منه أن يبيّض وجهها في ميدان الجهاد. ونرى رجلاً قوياً؛ مؤمناً بالدين إيماناً راسخاً، يخاطب زوجته الطيبة، ويرد على دموعها أن كتاب الله تعالى أخرجه للجهاد، وما عليه إلا أن يستجيب، مهما كان الشمن غالياً، ثم يوصيها بالصبر؛ حتى يعود إليها بإذن الله تعالى، وإن أراد الله تعالى له الموت في سبيله، فإنه يتطلب منها ألا تبقى بعده بدون بعل، بل تبحث لنفسها عن زوج صالح، ويختتم كلامه؛ بأنه ما ينبغي له أن يتخلّف عن الرجال، فليس بأعرج أو أعمى فيغدر، أو مريضاً لا يستطيع التحول من مكان إلى آخر، وبهذا يحاكي آية الجهاد، وهي: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ بَجَرِيٍّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذَّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٣٦).

الهوماش

- ١- قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة الجعدي العامري، أبو ليلي: شاعر مفلق، صحابي، من المعمرين. اشتهر في الجاهلية. وسمى " النابغة " لأنها أقام ثلاثة سنّة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله. وكان من هجر الأوثان، ونفي عن الخمر، قبل ظهور الإسلام. ووفد على النبي ﷺ وأدرك صفين، فشهادها مع علي. ثم سكن الكوفة، فسيره معاوية إلى أصحابهان مع أحد ولاتخا، فمات فيها وقد كف بصره، وجاوز الملة. الأعلام، الزركلي، ج، ط٥، ١، بيروت: دار العلم للملائين، ٢٠٠٢ م.
- ٢- ديوان النابغة الجعدي، ص: ٩٨-٩٩.
- ٣- قيل: القرن أربعون سنة، بدليل قول الجعدي: ثلاثة أهلين أفتتهم... وكان الإله هو المستأس، وقال هذا وهو ابن مائة وعشرين سنة، الحكم والحيط الأعظم، ابن سيدة، ج٦، ص: ٣٦٣.
- ٤- معنى المستأس: المستعطى، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج٣، ص: ٦٠٩.
- ٥- فستر الأصمعي المنون هنا بالزمان وأراد به الأزمنة، لسان العرب، ج١٣، ص: ٤١٦.
- ٦- ديوان النابغة الجعدي، ص: ٥٦-٥٧.
- ٧- أنظر معنى المزبور في جمهورة اللغة، ج٢، ص: ١١٨٨.
- ٨- ديوان النابغة الجعدي، ص: ١٢٢.
- ٩- أنظر معن شعف في الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج٤، ص: ١٣٨٢.
- ١٠- النعمان (الثالث) ابن المنذر (الرابع) ابن المنذر بن امرئ القيس اللخمي، أبو قابوس: من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية. الأعلام، ج٨، ص: ٤٣.
- ١١- ديوان النابغة الجعدي، ص: ١٧٦-١٧٧.
- ١٢- (٤٠٠٠ - نحو ٦٠ ق ٥): المنذر بن امرئ القيس الثالث ابن النعمان بن الأسود اللخمي. الأعلام، ج٧، ص: ٢٩٢.
- ١٣- هو يوم سفوان لجدة وقشير على النعمان بن المنذر ولهم، انظر مجمع الأمثال ج٢، ص: ٤٤٣. وسفوان: اسم موضع لبني قيم عند جبل يقال له: سدام ببادية البصرة، انظر كتاب العين، ج٧، ص: ٣٠٨.
- ١٤- ديوان النابغة الجعدي، ص: ٧٩.
- ١٥- المصدر السابق، ص: ١٧٨-١٧٩.
- ١٦- أيام الختان أيام كانت للعرب قديمة، هاج بهم مرض في أنوفهم وحلوقهم فأرجح العرب بعام الختان لأنهم تماوتوها فيه، وعظم عندهم أمره. أدب الكتاب، أبو بكر الصولي، اعني به: محمد مجحة الأثيري، بمصر: المطبعة السلفية، ص: ١٧٩.
- ١٧- ديوان النابغة الجعدي، ص: ٥٩.
- ١٨- المصدر السابق، ص: ٥٣.
- ١٩- فمعنى مقبوحة: من القبح وهو الإبعاد، انظر لسان العرب، ج٢، ص: ٥٥٢.

- .٤٣ - فاطر: .٢٠
- .٢١ - الحديد: .٢٠
- .٥٤ - ديوان النابغة الجعدي، ص: .٢٢
- .٦٢: الأعراف: .٢٣
- .١٤٩ - ديوان النابغة الجعدي، ص: .٢٤
- .١٦-١٥: سباء: .٢٥
- .٥٤ - ديوان النابغة الجعدي، ص: .٢٦
- .٤٤٠ - الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق)، ج ١٠، ص: .٢٧
- .٥٩: الأنعام: .٢٨
- .١١٠: طه: .٢٩
- .٨٥ - ديوان النابغة الجعدي، ص: .٣٠
- .٤٨٩ - معجم مقاييس اللغة، ج ١، ص: .٣١
- .٤٠ - ديوان النابغة الجعدي، ص: .٣٢
- .٨٧ - السنن الكبرى، النسائي، ج ٩، ص: .٣٣
- .١٩٣ - ديوان النابغة الجعدي، ص: .٣٤
- .١٣٨ - ديوان النابغة الجعدي، ص: .١٣٧ - .٣٥
- .١٧: الفتح: .٣٦

المصادر والمراجع

- ١ - الأعلام، الزركلي، ط٥٨، ج١، بيروت: دار العلم للملائين، ٢٠٠٢ م.
- ٢ - الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق)، عمر بن راشد، ج٢، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، باكستان: المجلس العلمي، وتوزيع المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٣ هـ
- ٣ - جهرة اللغة، محمد بن الحسن بن دريد، ج٣، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، بيروت: دار العلم للملائين، ١٩٨٧ م.
- ٤ - ديوان النابغة الجعدي، تحقيق: د. واضح الصمد، ط١، بيروت: دار صادر، ١٩٩٨.
- ٥ - السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن النسائي، ج١٠، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م.
- ٦ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج٦، تحقيق: أحمد عبد العفور عطار، ط٤، بيروت: دار العلم للملائين، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.
- ٧ - لسان العرب، جمال الدين ابن منظور الأنباري، ط٣، بيروت: دار صادر، ١٤١٤ هـ.
- ٨ - معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج٦، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر، ج٤، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م.